



أجمل الهدايا تأتيك من أعدائك. حين يخطئون التقدير والحساب. ويستدرجهم الحقد والذعر إلى التهور. يتوهمن أن الرياح مواتية لتسديد طعنة نجلاء. ما أصعب إقناع الكولونيلات بأن العالم تغير! وأنه لم يعد يكفي احتلال الإذاعة والتلفزيون لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء. قبل أن يغلبه النعاس يبتسم ويسترجع شريط الأحداث. ما كان أقسى تلك الليلة! تصوّر لو أنهم نجحوا، وأنهم دفعوني إلى زنزانة شبيهة بزنزانتة محمد مرسي. أغلبظن أن بشار الأسد سهر ينتظر خبرا سارا، وأن عبدالفتاح السيسى لم ينم باكرا، وأن فتح الله غولن كان يستعد للاحتفال.

تدخل الشعب، والأحزاب، والمؤسسات. وتدخل الحظ أيضا لإنقاذه من سوء المصير. رسالة مصورة ومقتضبة منه عبر هاتف ذكي، تلقّفها أنصاره وتدقّقوا إلى الشوارع. حاصروا المجموعات التي كانت تحاول إحكام الحصار على المواقع الحساسة. وتدخل الحظ حين رفض الجسم الأساسي في الجيش الانضمام إلى المغامرة. هكذا ضلّت الطعنة طريقها وارتدت إلى مسديها.

لأعداء الداخل احتفلوا ولا خصوم الخارج ناموا في رحاب البهجة وتصفية الحسابات.

ما أجمل أن يطيش سهم أعدائك ويرتد إلى نحورهم، وأن تستحيل مؤامرتهم فرصتك الذهبية. وأن تطل على العالم رمزا للشرعية، وحارسا لرمى الجمهورية. وأن تؤكّد شعبيتك، وتلمع صورتك. وأن تغرق في حشود جماهيرية ملتّبة. وأن تحصد تفوّيضاً ميدانياً واسعاً يفوق متعة الفوز في الانتخابات!

جاءت الطعنة – الهدية في التوقيت المناسب. كانت صورة السلطان شرعت في الاهتزاز. سياسة «تصفيير المشاكل» انتهت بـ «تصفيير الصداقات». والملفات أظهرت بطلان الحسابات. لم يعد النموذج التركي مغرياً لأحد على غرار ما كان في بدايات «الربيع العربي». أصطدمت سفينه السياسة التركية بصخور كثيرة، وترامت خسائر الاقتصاد بالبلائيين.

كان خصوصه يستعدون لمحاسبته. قالوا إنه بالغ في الاتهامات وافتعال الأزمات. ولم يدرك خطورة اللعب مع الذئاب. وأنه سهل مرور الإرهابيين متوهماً أنهم يعملون في اتجاه واحد. ولم يتعلم من تجربة النظام السوري حين مرّ الجهاديين إلى العراق،وها هو يحصد ما زرع. وأنه تنكر لوعوده للأكراد فعادت قنابلهم إلى الانفجار بجنوده. وأن أخطاءه مع واشنطن وموسكو معاً دفعتهما إلى رعاية أكراد سوريا ووضعهم على طريق إقليمي في دولة فيديرالية.

كانت صورة السلطان شرعت في الاهتزاز، وهبّت على نظامه رياح العزلة. صارت بلاده شبه مطوقة بـ «الوحدات الكردية» وميليشيات الجنرال قاسم سليماني. وفي العاصمه الغربية شكوك عميقه حول موقفه من أزمة اللاجئين، فضلاً عن الديمقراطية والعلمانية. وكانت موسكو تنتظر ساعة تصفية الحسابات. انحنى السلطان للعاصفة. اعتذر من القيصر. وأعاد العلاقات الدافئة مع إسرائيل. ولوّح بمراجعة للعلاقات الشائكة مع جيرانه.

فجأة ارتكب الكولونيالات غلطة العمر. تدخل الحظ وتدخل الشعب وتوحدت الأحزاب. وسواء أحببته أم كرهته، إنه رقم صعب. يذهب إلى انتخابات حرة ويرجع منتصراً. وهذا ليس قليلاً ولا شائعاً. إنقد «فتى اسطنبول» الجمهورية وانقضّ باتهاماته على الداعية المقيم في بنسلفانيا، وبدأت رؤوس الضباط والقضاة في التدحرج. أغلبظن أن كمال أتاتورك مات ثانية حين رأى عسكريين يرفعون أيديهم مستسلمين لعسكريين آخرين جاؤوا في صحبة مدنيين.

طُويت صفحة في تركيا وفتحت أخرى. السؤال الكبير مازا سيفعل «فتى اسطنبول» بهذا الرصيد الواسع الذي وفرته له الطعنة – الهدية؟

الحياة اللندنية

المصادر: